

# الحياة في كتاب الأغاني

الأستاذ شفيق جبري

إذا كنتنا ننظر إلى كتاب الأغاني من ناحية ما قاله صاحبه في مقدمته من أنه جمع فيه ما حضره وأمكنه جمعه من الأغاني العربية ، قديمها وحديثها ، فإننا نظلم أبا الفرج لأنه جمع فيه ما هو أجلّ قدراً من ذلك ؛ وإذا كنتنا ننظر إلى هذا الكتاب العظيم من ناحية ما جمعه صاحبه فيه من آثار وأخبار ، وسير وأشعار متصلة بأيام العرب المشهورة وأخبارها الماثورة وقصص الملوك في الجاهلية والخلفاء في الإسلام ، فإننا نظلم أنفسنا لأن وراء هذا كله حياة اجتماعية كاملة لا ينبغي لنا أن نفعل عنها .

إن الذين قالوا : لقد وقع الاتفاق على أن كتاب الأغاني لم يعمل في بابيه مثله لم ينحرفوا عن الحق في قولهم ، وأست في حاجة إلى ذكر ما قاله القدماء في قيمة هذا الكتاب أمثال صاحب بن عبّاد وعضد الدولة والوزير المهلبى وعبد العزيز بن يوسف والثعالبي وياقوت وابن خلدون .

أما الأغاني التي جمعها أبو الفرج وأما المصطلحات التي استعملها أمثال قوله : الثقيل الأول وخفيفه الثقيل الثاني وغير ذلك من هذه المصطلحات ،

أما هذا كله فقد ينفرد بمعرفته رجال الموسيقى ، ولست منهم في شيء ، والذي سمعته أنهم في عصرنا قد أحاط علمهم بكل هذه الرموز وأصبحوا يعرفون ما يراد بالثقل الأول والثقل الثاني وغير ذلك ، فهذا لا يعنيننا أمره في هذا المقال ، وكما أنني لا أعنى بالأغاني ومصطلحاتها في كتاب الأغاني فكذلك لا أعنى في هذا المقال بالأدب المستفيض في هذا الكتاب ، إن هذا الأدب إنما هو كنز لا يفنى مع الإنفاق ، وهذا التعبير اقتبسته من ابن المقفع لأنه وحده يليق بالافصاح عن منزلة كتاب الأغاني ؛ فإذا كنت لا تقرأ هذا الكتاب إلا الانتفاع بأدبه فقد يتم لنا من هذا الانتفاع شيء كثير نصقّي به ذوقنا ونمّي به معرفتنا ونقف على طبقات كثيرة من الشعر على اختلاف عصوره وأطواره . ولكن كتاب الأغاني ينبغي لنا أن نقرأه لأسباب ثانية .

وسنظلم في هذه القراءة على فوائد لا تقل عن الفوائد الأدبية ، سنتمتع بالوقوف على الحياة بخدائيرها في بعض المواضع من عصورنا ، لقد ذهب عنا أخبار كثيرة من هذه الحياة فإذا افتقرنا إلى شيء فإننا نفتقر إلى الإحاطة بمظاهر تلك الحياة فلا نعرف مثلاً أين كان تدريس الطلاب ولا كيف كانت معاملة المعلمين للطلاب ولا كيف كانت مجالس الطلاب وأساليب دراستهم وطبيعة هزلهم . غير أن الحياة لا تقتصر على حياة الطلاب وحدهم فإنها تمتد إلى آفاقٍ أبعد ، إلى اللهو والشراب والزينة ، إلى داخل الدور وما تشتمل عليه هذه الدور من الأواني والفرش والسياب .

هذا بعض ما نحتاج إليه من معرفة الحياة الاجتماعية في تاريخنا ، ولا سيما حياة العامة ، فإن أدبنا في القديم قد حُبس على الخاصة وأهل أكثره معرفة أمور العامة .

وفي كتاب الأغاني أشياء غير قليلة من هذه المعرفة ، غير أن حياة



الخاصة ، ولا سيما حياة الخلفاء ، كانت أظهر في كتاب الأغاني فقد نقف فيه على أمور كثيرة من قصور الخلفاء وفن البناء في الحجاز والشام والعراق. ماذا أحصي من مظاهر الحياة الاجتماعية في كتاب الأغاني ، أفلاهمنا أن نعرف أندية تلك العصور ومطاعمها وخاناتها وقصاصها وأفراحها وأحزانها ؟ وأما المرأة وحياتها فقد كانت سرّاً من الأسرار ، إلا أن أبا الفرج قد كشف لنا عن هذا السرّ بكلامه على حرية المرأة في الزواج وتفكيرها في حرية الطلاق وتحديثها إلى الرجال وحجابها وسفورها ، ونحن في أشد الحاجة إلى مثل هذا الكشف ولو كان قليلاً .

هذا بعض ما نهتدي إليه في كتاب الأغاني ، دع عنك أشياء ثانية تتصل بالغناء في القصور وبمواكب الحج وغير ذلك ، والذي نستغربه كل الاستغراب إنما هو أمر اللهو والتبذير ، وحسبنا بيتان قليلا في التبذير وردا في كتاب الأغاني .

وحلّة تنشر ثم تطوى وطيلسان يشتري فيغلي  
لمبد عبدٍ أو لمولى مولى يا ويح بيت المال ماذا يلقى

ليس هذا كل ما يحتوي عليه كتاب الأغاني الخالد على تعاقب العصور ولكنني أكتفي بالإشارة إلى بعض محتوياته حتى نعلم أن هذا الكتاب ليس مجرد ذكر الأغاني العربية ، وذكر آثار وأخبار وسير وأشعار ، ولكنه صورة حياة اجتماعية بخدائرها نمرّ في تضاعيف سطوره بطائفة من أسرار هذه الحياة بما لا نمرّ في غيره بأشباهاها فإذا نحن جمعنا هذه الآثار والأخبار والسير ، ونسّقناها في كتاب خاص حصلت لنا بذلك صورة الحياة الاجتماعية في بعض أيامها .

قد نستغرب هذا الأمر فنقول : لماذا لم ينسّق أبو الفرج كتابه على

الشكل الذي يصور لنا الحياة أوضح تصوير؟! إنه قد فطن إلى هذا التنسيق ولم يذهب عنه ، ولكنه اعتقد أن في طباع البشر محبة الانتقال من شيء إلى شيء ، والاستراحة من معهود إلى مستجد ، وكل مُنتقلٍ إليه أشهى إلى النفس من المُنتقل منه ، والمنتظر أغلب على القلب من الموجود .

غير أنا في هذا العصر نميل إلى التنسيق وإلى الاختصاص ، فإذا تفرغنا لموضوع فإننا نحب أن نتفرغ له بشيء كثير من التبويب والتنسيق ، وهكذا نجد أن أساليب التأليف تختلف من عصر إلى عصر وأن الأذواق تتباين من دهر إلى دهر . وكيف كان الأمر فإذا وجدنا في كتاب الأغاني ذخيرة لأدبنا وصورة لكثير من أشعارنا على اختلاف أيامها نصفي بها أذواقنا في الشعر ، ومظهراً من مظاهر النقد الأدبي نهتدي به إلى المحاسن والمساوي ، إذا وجدنا هذا كله فقد آن لنا أن نجد في كتاب الأغاني صورة حياتنا الاجتماعية في كثير من أنماطها ، وأن نغلا قلوبنا وعقولنا من هذه الصورة فنخرج من هذا كله بنتيجتين :

علو منزلة أبي الفرج في الأدب والذوق .

وعلو منزله في تصوير الحياة .

وهذا ما يدخله في جنات الخالدين .

شفيق جبري